أنت إنسان ولست حيوان

كتبه محمد الصغير الثلاثاء ١٨ رمضان ١٤٤٣

يَسْتَيْقِظُ كُلَّ صَبَاحٍ رَجُلَانِ وَفَأْرَانِ، وَيَرْتَدِي كُلُّ وَاحِدٍ لِبَاسَ الْجَرْيِ، وَيَبْدَأُ يَجْرِي فِي مَتَاهَةٍ بَحْثًا عَنْ طَعَامٍ، وَيَعُودُ فِي الْمَسَاءِ لِيُكَرِّرَ نَفْسَ الْأَمْرِ فِي الْيَوْمِ الْمَوَالِي

هَكَذَا بَدَأَ كَاتِبُ كِتَابٍ " مَنْ حَرَّكَ قِطْعَةَ الْجُبْنِ الْخَاصَّةَ بِى " قِصَّتَهُ الَّتِي يُعَبِّرُ فِيهَا عَنْ الْحَيَاةِ، وَالَّتِي بِحَسْبِ الْكَاتِبِ هِيَ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ وَجَوْهَرُهَا، وَالَّتِي عَلَيْنَا تَقْبَلُهَا وَالتَّكَيُّفُ مَعَ مُتَغَيِّرَاتِهَا، وَإِلَّا فَسَوْفَ نُهْلِكُ نَظَرًا لِصُعُوبَةِ الْحَيَاةِ.

إِنَّ الْكَارِثَةَ هِيَ اعْتِبَارُ الْحَيَاةِ رَكْضٌ مُسْتَمِرٌّ بَحْثًا عَنْ رِزْقٍ مَادِّيٍّ، وَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ وَالْفَأْرَ وَسَائِرَ الْحَيَوَانَاتِ مُتَسَاوُونَ، هُمُّ كُلُّ وَاحِدٍ الْحُصُولَ عَلَى قُوتِ يَوْمِهِ، أَوْ بَعْضِ مَتَاعِ الدُّنْيَا، لِأَنَّنَا بِهَذَا نَظْلِمُ أَنْفُسَنَا ظُلْمًا كَبِيرًا، وَنَدْخُلُهَا فِي دَوَّامَةٍ خَالِيَةٍ مِنْ أَيِّ مَعْنًى حَقِيقِيٍّ يَتَنَاسَبُ مَعَ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا.

قَبْلَ مُحَاوَلَةِ تَرْمِيمِ الْجَانِبِ الرُّوحِيِّ الْمُدَمِّرِ فِي شَخْصِيَّةِ الْإِنْسَانِ الْيَوْمَ، أَوَدُّ التَّنْبِيهَ عَلَى حَقِيقَةٍ بَيُولُوجِيَّةٍ تَصْنَعُ فَارِقًا كَبِيرًا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَائِمَةٌ طَعَامِهِ هِيَ أَوْسَعُ قَائِمَةٍ عَلَى الِاطِّلَاقِ، فَهُوَ يَأْكُلُ مُنْتَجَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، حَيَوَانَاتٍ كَانَتْ أَوْ نَبَاتَاتٍ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ لَا يُقْلَقَ حِيَالَ طَعَامِهِ، فَهُوَ لَيْسَ كَالْبَقَرَةِ الَّتِي إِذَا لَمْ تَجِدْ الْعُشْبَ أَوْ الْعَلَفَ مَاتَتْ جُوعًا، فَالْإِنْسَانُ بِإِمْكَانِهِ أَكْلُ اللُّحُومِ، وَالْإِنْسَانُ أَيْضًا لَيْسَ كَالْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ الَّتِي إِذَا لَمْ تَجِدْ لَحْمًا مَاتَتْ جُوعًا، فَالْإِنْسَانُ بِإِمْكَانِهِ تَنَاوُلُ الْحُبُوبِ وَالْخَضْرَوَاتِ، وَفَضْلًا عَلَى مَا سَبَقَ الْإِنْسَانُ بِإِمْكَانِهِ إِنْتَاجَ طَعَامِهِ مِنْ خِلَالِ الزِّرَاعَةِ وَتَنْمِيَةِ الْحَيَوَانَاتِ، لِذَلِكَ فَالْإِنْسَانُ يَتَمَتَّعُ بِأَرْيَحِيَّةٍ كَبِيرَةٍ لَيْسَتْ مُتَوَفِّرَةً لِلْحَيَوَانَاتِ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ وَقْتَهُ يُمْكِنُهُ تَوْظِيفُهُ فِي تَحْقِيقِ شَيْءٍ أَهَمَّ، شَيْءٌ يُنَاسِبُ طَبِيعَتَهُ الَّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَيْهَا وَيُنَاسِبُ الْغَايَةَ الَّتِي خُلِقَ مِنْ أَجْلِهَا.

إِنَّ صُعُوبَةَ الْحَيَاةِ الَّتِي يَشْعُرُ بِهَا أَغْلَبُنَا وَهْمٌ مِنْ الشَّيْطَانِ، قَدْ أَخْبَرَنَا رَبُّنَا عَنْهُ فِي قَوْلِهِ :

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

الْبَقَرَةِ: ٢٦٨

فَشَبَحُ الْفَقْرِ يُطَارِدُ أَغْلَبَنَا، لِذَلِكَ لَا يَسْتَطِيعُ النَّظَرَ إِلَى مَا عِنْدَهُ مِنْ نِعَمٍ كَثِيرَةٍ لَا حَصْرَ لَهَا، لِأَنَّهُ لَا وَقْتَ لَدَيْهِ، فَالشَّيْطَانُ صُوِّرٌ لَهُ أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَسْعَ بِكُلِّ طَاقَتِهِ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ، سَوْفَ يَهْلِكُ لَا مَحَالَةَ، وَبِالتَّالِي تَطْحَنُهُ عَجَلَةُ الْحَيَاةِ الَّتِي تَزْدَادُ قَسْوَةً وَوَحْشِيَّةً بِزِيَادِ التَّنَافُسِ بِاسْتِمْرَارٍ.

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ ارْبَعْ عَلَى نَفْسِكَ فَرِزْقُكَ مَضْمُونٌ

أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَنْتَ أَهَمُّ مِنْ أَنْ تُحَدِّدَ قِيمَتَكَ قِطْعَةَ قُمَاشٍ تَسْتُرُ جَسَدَكَ، أَوْ آلَةً تَقْتَنِيهَا

كُلُّ مَا تَرَاهُ فِي الْأَرْضِ هُوَ لَكَ أَصْلًا

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم ما فِي الأَرضِ جَميعًا ثُمَّ استَوى إِلَى السَّماءِ فَسَوّاهُنَّ سَبعَ سَماواتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ)

الْبَقَرَةِ: ٢٩

فَلَا تَشْتَغِلْ بِهِ، فَهَدَفُكَ أَعْلَى مِمَّا تَرَاهُ، فَأَنْتَ لَسْتَ حَيَوَانًا وَإِنَّمَا سَيِّدًا عَلَى الْحَيَوَانَاتِ سَخَّرَهَا اللَّهُ لَكَ، فَلَا تَحْقِرَنَّ نَفْسَكَ بِأَنْ تَجْعَلَهَا كَالْحَيَوَانِ تَلْهَثُ وَرَاءَ لُقْمَةِ الْعَيْشِ وَحَسْبُ.

إِنَّ الْمُشْكِلَةَ أَنَّكَ حَتَّى إِذَا رَضِيتَ بِالْحَضِيضِ فَإِنَّ طَبِيعَةَ نَفْسِكَ تَرْفُضُهُ، فَلَنْ يُشْبِعَ نَفْسَكَ الذَّهَبَ وَالْجَوْهَرَ وَلَا السَّيَّارَاتِ وَلَا الْقُصُورَ، لِأَنَّ كُلَّ ذَلِكَ يَفْتَقِدُ إِلَى الْمَعْنَى، كُلُّهُ مَوَادٌّ صَمَّاءُ لَا جَوْهَرَ لَهَا، وَهَذَا مَا يَجْعَلُ حَيَاتَكَ جَحِيمًا فِي تِيهِ مُسْتَمِرٌّ نَظَرًا لِكَوْنِ هَذِهِ الْحَيَاةِ لَا مَعْنَى لَهَا.

لِلهُرُوبِ مِنْ كَابُوسِ الْفَرَاغِ النَّفْسِيِّ يَرْمِي الْمَرْءَ نَفْسَهُ فِي عَجَلَةِ الْإِنْتَاجِ الْمَادِّيِّ بِاسْتِمْرَارٍ فَيَتَحَوَّلُ مَعَ الزَّمَنِ إِلَى مُجَرَّدِ آلَةٍ تُنْتِجُ لِذَاتِ الْإِنْتَاجِ وَحَسْبُ وَهَذَا هُوَ حَالُ أَغْلَبِ النَّاسِ الْيَوْمَ، يَعْمَلُ بِاسْتِمْرَارٍ لِيَزِيدَ دَخْلَهُ، وَلَيْسَ لِهَذِهِ الزِّيَادَةِ حَدٌّ.

أَوْ يَرْمِي الْمَرْءُ نَفْسَهُ فِي نَارِ الشَّهَوَاتِ فَيَزْدَادُ الْفَرَاغُ النَّفْسِيُّ وَيَتَوَحَّشُ لِيَصِلَ إِلَى مَرْحَلَةٍ تَمُوتُ فِيهَا النَّفْسُ الْبَشَرِيَّةُ تَمَامًا وَيَبْقَى جَسَدُ حَيَوَانٍ قَدْ أَتْلَفَتْهُ الشَّهَوَاتُ بِالْأَمْرَاضِ الْمُزْمِنَةِ.

أَنْتَ لَمْ تَخْلُقْ لِهَذَا، وَحَيَاتُكَ لَيْسَتْ لِجَمْعِ غَرَضٍ مَادِّيٍّ، أَنْتَ خُلِقْتَ لِتَكُونَ خَلِيفَةً عَلَى الْأَرْضِ

(وَإِذ قالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنّي جاعِلٌ فِي الأَرضِ خَليفَةً قالوا أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قالَ إِنّي أَعلَمُ ما لا تَعلَمونَ)

الْبَقَرَةِ: ٣٠

وَقَدْ كَرَّمَكَ رَبُّكَ، وَفَضْلَكَ

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

الْإِسْرَاءِ: ٧٠

وَجَائِزَتُكَ إِذَا قَبِلْتَ التَّكْرِيمَ لَيْسَ الْأَرْضَ مُدَّةً مِنْ الزَّمَنِ وَحَسَبُ، بَلْ جَنَّةٌ عَرَضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا

فَانْتَبِهْ لِنَفْسِكَ ... كَفَاكَ بُؤْسًا ... كَفَاكَ جَرْيًا وَرَاءَ شَيْءٍ تَافِهٍ ... تُوقَّفَ لَحْظَةً مَعَ نَفْسِكَ وَتَذَكُرُ مَنْ أَنْتَ ... لَا تَرْضَ بِأَنْ تَكُونَ حَيَوَانًا، فَأَنْتَ أَعْظَمُ شَأْنًا.